النزعة الصوفية عند الأمير عبد القادر الجزائري

The Sufi tendency of Prince Abdul Qadir Al-Jazairi

أ.د/ نعيمة بولكعيبات

قسم الأدب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات

جامعة قسنطينة1، الإخوة منتوري

الملخص:

لا تقف أهمية الأمير عبد القادر كونه مؤسس الدولة الجزائرية وحسب بل تتجاوزه إلى مجالات متعددة، فهو عالم، وفقيه، وقائد عسكري، وأديب ورائد الحركة الصوفية الجزائرية شعرا وفكرا، استطاع بفكره الأدبي الثاقب أن يساهم في تكوين الحركة الأدبية الجزائرية حيث ساهم في تطور الكتابة الشعرية ونوّع في أغراض الشعر، كما سمحت نزعته الصوفية الفكرية والأدبية من وضع معالم الشعر الصوفي في الجزائر .

وهذه الورقة البحثية ستتعرض للنزعة الصوفية في فكر وشعر الأمير عبد القادر محاولة الإجابة عن الطروحات الآتية:

- كيف استطاع الأمير عبد القادر التأسيس للفكر الصوفي المعتدل في الجزائر رغم ما كانت تشهده الجزائر من طرق صوفية متشددة وبعيدة عن معالم الدين؟.
- ماهي معالم التصوف الفكري وكيف أثرت على شعر الأمير ؟
- ماهي خصائص الكتابة الصوفية عند الأمير عبد القادر؟

إن هذه الدراسة تطبيقية تحاول استنطاق نصوص الأمير عبد القادر الجزائري للوصول إلى النزعة الصوفية في فكره وشعره، مع الوقوف عند أهم ما يميز هذه النزعة.

الكلمات المفتاحية:

الشعر، التصوف، النزعة، الفكر، الروحانية.

Abstract

The importance of Prince Abdelkader does not stop only at being the founder of the Algerian state, but extends beyond that to multiple fields, He is a scholar, jurist, military leader, writer, and pioneer of the Algerian Sufi movement in poetry and thought. Through his insightful literary thought, he was able to contribute to the formation of the Algerian literary movement, as he contributed to the development of poetic writing and diversified the purposes of poetry. His intellectual and literary Sufi tendency also allowed him to establish the features of Sufi poetry in Algeria.

This research paper will address the Sufi tendency in the thought and poetry of Prince Abdul Qadir, attempting to answer the following propositions:

- How was Prince Abdelkader able to establish moderate Sufi thought in Algeria despite the extremist Sufi orders that Algeria was witnessing, far from the features of religion?
- What are the features of intellectual Sufism and how did they affect the prince's poetry?
- What are the characteristics of Sufi writing according to Prince Abdul Qadir?

This is an applied study that attempts to interrogate the texts of Prince Abdul Qadir Al-Jazairi to reach the Sufi tendency in his thought and poetry, while focusing on the most important features that distinguish this tendency.

key words : Poetry, Sufism, tendency, Thought, Spirituality.

مقدمة

شخصية الأمير عبد القادر من الشخصيات الوطنية التي أصبحت أنموذجا وطنيا وتاريخيا وثراثيا يمثل به للتعبير عن الهوية الوطنية، والشجاعة، والتضحية في سبيل الوطن، والإبداع. لقد استطاع الأمير عبد

القادر أن يجمع في شخصيته بين الفن والجمال والموهبة الشعرية، والشجاعة والقوة، كما عرف بالورع والتقوى والتعبد وصاحب فكر صوفي أثر في شعره وفي كتاباته، وكان سببا وراء تطور هذا الفكر في الجزائر.

I. الفكر الصوفي في الجزائر: التأسيس والخصائص

رغم معناة الشعب الجزائري من ويلات الاحتلال الفرنسي الذي دام طويلا إلاّ أن ذلك لم يمنع من ظهور الفكر الصوفي الروحاني الذي عمل على الحفاظ على الهوية الدينية واللغوية الجزائرية.

التصوف من المفاهيم الفضفاضة الذي كثر فيه الكلام والتعاريف، فهو ليس مذهبا دينيا وعقائديا وإنما هو توجه فكري وفلسفة في الحياة ينطلق من وعي ذاتي يراد به الوصول إلى الحقيقة المطلقة وإلى الرؤية العميقة التي تستلزم كشف الحُجب «فلا الفلسفة قادرة على أن تحيط بمفاهيمها ولا العقل، بل بصيرة القلب" الغنوصية" هي التي تجليها»[1]. وعبر عنها الجنيد أحسن تعبير عندما قال: « ليس التصوف بكثرة صيام وصلاة، بل بطمأنينة القلب وتسليم الروح»[2]. فالتصوف يتعلق بالروح والقلب ليصل إلى العرفانية، فالتصوف هو «بحث القلب وحوار المشاعر»[3]، ويرتبط بالعلاقة الخفية التي تربط الوجدان بالعقل ليصل إلى المعرفة الحقة واليقين المطلق.

وهذا الاتساع في المفهوم ولانهائية التصوف جعله من العلوم المرتبطة بالدين والروح التي تعددت في المفاهيم حتى أن " الحافظ أبو نعيم المتوفى سنة 430 هـ " عدها في كتابه« حلية الأولياء وطبقات الأصفياء إلى ثمانمائة تعريف، ذلك أن المؤلف كلما ترجم لواحد من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين إلا ويذكر أثناء هذه الترجمة تعريفا للتصوف»[4]. التصوف عند ابن خلدون بأنه « طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة »[5].

وفي المغرب « لم يكن المتصوفة أصحاب كرامات وسلوك فقط يشتغلون بالعلم ويكدون من أجل الحصول على مستلزمات الحياة، ففي الشريف في ذكر صلحاء الريف " لعبد الحق البادسي مثلا، لا يكتفي

([1])_ الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، ص 43.

([2])_آن ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر :محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل، الجمل، لبنان، ط 01 :، 2006 ، ص20.

([3])_محمد كمال إبراهيم جعفر، التصوف : طريقا وتجربة ومذهبا، دار الكتب الجامعية، القاهرة، 1970 ، ص09.

([4])_نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ص 08.

([5])_ ابن خلدون، المقدمة، ج01، دار القلم، بيروت، لبنان، ط:04، 1981، ص 467.

المصنف بذكر كرامات المتصوفة ومناقبهم، بل يذكر مؤلفاتهم ومتونهم وحلقاتهم العلمية لأنهم كانوا كلهم علماء، وتصوفهم كان مطبوعا بالبساطة، ومن أجل هذا لم يكن المتصوفة يختلفون عن بقية الناس إلا بكثرة العبادة، ومجاهدة النفس، وتلاوة القرآن، وقراءة المأثور من الأدعية»[1].

وعرفه أبو الحسن الشاذلي بقوله: « التصوف تدريب انفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية»[2]، فالتصوف هو السعي وراء الكمال في العبادات والأخلاق، والارتقاء بالنفس وتهذيبها، وتصفية الروح وضبط الجوارح والابتعاد عن كل ملذات الدنيا وشهواتها، فالمتصوف يسعى إلى الارتقاء بالنفس إلى مراتب الإيمان العليا والوصول إلى مقام الإحسان والقبول والرضا من الله عز وجل. ولربما اشترك هذا المصطلح بكثرة مفاهيمه اللغوية والدلالية، فلابد من الإشارة إلى تعدد الآراء حول المعنى الاشتقاقي لكلمة التصوف بين من يرجعه إلى رداء الصوف، وآخر يرجعه إلى الصفا أو التطهير كما قال " بشر الحارث" :« قوم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله، أي أنهم خاصة المؤمنين المقربين من الله والذين يعبدونه ليل نهار ويطيعون ما لأنزل من شرائع»[3].

انتقل التصوف إلى المغرب العربي عن طريق الأندلس وكان سكان المغرب العربي يربطون التصوف بالعلم والعمل، فالمتصوف يجب أن ينغمس في الحياة ومشاغلها ويضيف عليها كثرة انشغاله بالعبادة والصلاة، وخير دليل على ذلك قول الإمام مالك :« من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»[4].

وعند الحديث عن الفكر الصوفي في الجزائر فقد جاء عن أبي القاسم سعد الله أن هذا التيار ظهر على يد «عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي، ولكن بجاية قد سبقت الجزائر وتلمسان بمدرسة عبد الرحمن الوغليسي (توفي 786)...كما سبقت قسنطينة بمدرسة حسن بن باديس صاحب (السينيّة) التي تبارى بعض العلماء في شرحها وتقليدها بل والتبرك بها »[5].

II. الفكر الصوفي في كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد

(1)_نور الهدى الكتاني، المرجع السابق، ص 10.

(2)_ المرجع نفسه، ص 08.

(3)_محمد علي أبو الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط:01، 1994ص 12.

(4)_نور الهدى الكتاني، المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

(5)_ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:01، 1998، ص 89.

التصوف هو فكر ورؤية للحياة والكون، هو البحث عن الكمال للوصول إلى الطريق، هو تهذيب الروح، وتطهير النفس، غاية المتصوف هو بلوغ مقامات والأحوال ومجاهدة النفس، ومعرفة الله، والفوز بمحبته وقربه، وقد كان الأمير عبد القادر صوفيا بفكره، وكتاباته، وبالنظر إلى مسار حياة الأمير نجد أن هذا الجانب الصوفي برز على فكر الأمير وكتاباته خلال نفيه، فقد واصل كفاحه بطرق أخرى « فقد كان يكاتب العلماء ويكاتبونه، ويقضي معظم أوقاته في التأليف والقراءة والتأمل الصوفي، حقا إن الأمير عبد القادر قد انغمس في أخريات حياته في عالم روحاني بعيد عن الصراع الدنيوي»[1]، وفي هذه المرحلة من حياة الأمير أنتج كتابه الصوفي المواقف والذي يعد استمرارية لفكر ابن عربي. وعندما نستقرِئُ حياة الأمير فهو منذ صغره مرتبط بالطريقة القادرية، وقد قضى جانبا « من حياته في العبادة والزهد في زاوية القيطنة»[2].

اتبع الأمير عبد القادر في كتابه المواقف كتابات السابقين في التصوف، فقد قام بشرح آيات الذكر بطريقة روحانية، يقول: « طريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسلة، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابة التابعين»[3].

تنطلق الرؤية الصوفية عند الأمير عبد القادر من مجاهدة النفس والبحث عن حقيقتها في باطنها، يقول: «إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جائحة، والقلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إليها كل مطار، ويرتكبون الأخطار، ويستعذبون الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر، ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد، في الزمان المتباعد، فإذا قدر لأحد مشارفة حماها، ومقاربة مرماها، ألقت عليه إكسيرا لا له مادة ولا مدة، ولا هو عين ممتدة، فيحصل انقلاب عينه، وجميع الأعيان في عينه، إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمودة المسلولة، الباطنة الظاهرة، المستورة السائرة، الجامعة للتضاد، بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، ولا يشير إليها بإشارة، أكثر من قوله: إني وصلتها وحصلتها، وبعد التعب والعنا، ومعاناة الضنا، وجدت هذه المعشوقة: أنا»[4]. فالصوفي يبحث عن ذاته في رحلته لتهذيب الذات، ويتضح ذلك في قوله: « فما كان هجري لذاتي إلا في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي، إلا لنحلتي، ولا وصولي إلا إليّ، ولا تفتيشي إلاّ عليّ،

([1])_ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، ص 27.

([2])_ المرجع نفسه، ص 28.

([3])_الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، تونس، ص 10.

([4])_الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، المرجع نفسه، ص11.

ولا كان سفري إلاّ مني فيّ إليّ»[1]. فهذا الحديث يعبر عن رحلة الروح والقلب الداخلية للوصول المقامات والأحوال.

ويقول الأمير في "الموقف 355" : «اعلم أن مسمى الله احدى بالذات كل بالأسماء»[2]، وهو للشيخ ابن عربي وعلق على كلام ابن عربي بقوله: « يعني الذات المسماة بالله من حيث هي في مرتبتها الذاتية وتجردها وغناها عن العالمين أحدية لا اسم ولا صفة لها ولا تركيب فيها ولا نسبة لها...» [3]. لنجده يقول: « من عرف نفسه عرف ربه»[4]. وهذه المقولة التي جاءت في فتوحات ابن عربي إن رؤية الأمير تشترك مع رؤية ابن عربي ولهذا نجد جلّ الدراسات تعده وريث ابن عربي، وهذا ما نلحظه حقيقة في كتاب المواقف الذي يعد شرحا واستمرارية لآراء ابن عربي، ومواقفه في فتوحاته. فالحديث عن الواحدية نجدها عند ابن عربي في حديثه عن الحقيقة الوجودية وتقسيمها إلى مراتب، ونجد ذلك بكثير من التفاصيل في كتابه الفتوحات المكية، والملاحظ أننا لا نلحظ اختلفا عند الأمير عبد القادر وبذلك فهو يعيد ويفسر ما قدمه من تقسيم لمراتب الوجود وجعل الواحدية وهي المرتبة التي «تتجلى فيها الذات في مجالي الأسماء والصفات، أو هي مرتبة الحق أو الله بالمعنى الديني»[5].

ويؤكد ذلك اتفاقه في شرحه للتجليات، يقول:« إن أهل هذا اللسان الواقفين في ميادين البيان قسموا التجليات إلى تجلّي فعلي، وتجلي أسمائي، وتجلي صفاتي، وتجلي ذاتي»[6]، ويواصل تفسيره للتجلي: «وأما التجلي الفعلي فمعلوم، وكذا التجلي السمائي والتجلي الصفاتي، وأما التجلي الذاتي فإنما يعنون به تجلي الحق تعالى للعبد من حيث أنه لا يظهر لذلك التجلي نسبة إلى اسم ولا صفة ولا نعت ولا اضافة، وانما يعرف أنه تجلي له فقط....فالتجلي الذاتي عند الطائفة العلية هو تجلي الذات من حيث الذات الآلهية لا من حيث الذات الأحدية»[7].

ودون التفصيل في كتاب الفتوحات لابن عربي فإن المراد من هذه المقرانة هو التأكيد على أن الأمير عبد القادر اتبع منهج ابن عربي في فتوحاته، وفسر القرآن الكريم في المواقف على طريقة ابن عربي.

([1])_ المرجع نفسه، ص 11.

([2])_ المرجع نفسه، ص 1162.

([3])_ المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

([4])_ المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

([5])_ أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة هنداوي، 2020، ص 165.

([6])_الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ص 1169.

([7])_ المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

III. الوعي الصوفي في شعر الأمير عبد القادر

يا عظيما قد تجلىّ كل مجلى له مجلى

أنت مبدي كل باد أنت أبدي أنت أجلي

كل مَن في الكون أنتم أنت مولى كل مولى

حسنك الباري تعالى أن نرى عنده مثلا

كل حسن مستعار من جمال قد تعلى

كنت قبل اليوم صبا أسأل المحبوب ميلا

فأزال الستر عني فبدا لي الفصل وصلا

زادني القرب احترافا فأنا بالوصل أصلى

عجبي من عشق نفسي ما أحبت غيري أصلا[1].

وفي قصيدة مدح فيها شيخه محمد الفاسسي، يقول:

أمسعودُ!!جاء: السّعد والخير واليسر وولت جيوش النحس، ليس لها ذكر

ليالي: صدود، وانقطاع، وجفوة وهجران سادات، ولا ذُكر الهجر

فأيامها، أضحت: قتاما ودجنة لياليها؛ لا نجم يضيء، ولا بدر

فراشي فيها؛ حشوه الهم والضنى فلا التذ لي جنب ولا التذ لي ظهر

ليالي أنادي – والفؤاد متيم ونار الجوى؛ تشوي، لما حوى الصدر

(1)_ الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج01، دار الكتب العلمية، ط:01، 2004، ص 38.

أمولاي!! طال الهجر، وانقطع الصبر أمولاي!!هذا الليل؛ وهل بعده فجر ؟![1]

ويقول في قصيدة من أكون:

أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت ويا أنت من تكون إن لم تكن أنا

ما بالكم قلتم غله واعبد فكثرتم لذاك طاشت عقولنا

إذا رفعت من بيننا العين والألف فقد رفع الستر المفرق بيننا

وذلك حين لا أنا لك عابد ولا أنت معبود فزال حجابنا[2].

ويقول:

أنا حق أنا خلق أنا رب أنا عبد

أنا عرش أنا فرش وجحيم أنا خلد

أنا ماء أن نار وهواء أنا صلد

أنا كم أنا كيف أنا وجد أنا فقد

أنا ذات أنا وصف أنا قرب أنا بعد

كل كون ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد[3].

وفي قصيدة" تجلى المحبوب" يقول:

تجلى له المحبوب من حيث لا يرى فأعجبه أراه من حيث لا أرى

وغيبتي به فغاب رقيبنا وزال حجاب البين وانحسم المرا

(1)_الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ص 18.

(2)_ الأمير عبد القادر، الديوان، ص 130.

(3)_ المرجع نفسه، ص 118.

فصرت أراه كل حين ولحظة وقد كان غائبا وقد كان حاضرا

وما عرف الخلاق إلا بجمعه لضدين من كل الوجوه تنافرا

وواصلي فلا تناكر بعد ذا وقربني فكان سمعا وباصرا[1].

وفي قصيدة مدح فيها رسول الله:

أبونا رسول الله، خير الورى طرا فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا

ولانا غدا دينا وفرضا محتما على كل ذي لب به يأمن الغدرا

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب وعن رتبة تسمو وبيضاء أو صفرا

بعليائنا يعلو الفخر وإن يكن وإن يكن به قد سما قوم، ونالوا به نصرا

وبالله أضحى عزنا وجمالنا بتقوى وعلم والتزود للأخرى

ومن رام إذلالانا، قلت: حسبنا إله الورى والجد أنعم به ذخرا[2].

قائمة المصادروالمراجع

الشريف الجرجاني، معجم التعريفات.

آن ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر :محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل، لبنان، ط 01 :، 2006 .

(1)_الأمير عبد القادر، الديوان، ص 121.

(2)_ المرجع نفسه، ص 45.

محمد كمال إبراهيم جعفر، التصوف : طريقا وتجربة ومذهبا، دار الكتب الجامعية، القاهرة، 1970 .

نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين

ابن خلدون، المقدمة، ج01، دار القلم، بيروت، لبنان، ط:04، 1981.

محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط:01، 1994.

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط:01، 1998.

شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس.

الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1966.